الباب الأول
سيكلوچية فرويد

الفصل الأول
الأصول العامة

على هذا التراث الكبير أقام فرويد نظرياته فى التحليل النفسى[1] بعد أن توفر على دراسة نفوس مرضاه دراسة واقعية هيأتها له طبيعة عمله كطبيب يأسو الأمراض العصبية والنفسية . فاصطنع ، فى جانب كبير من بحثه ، طرائق البحث العلمى محاولا أن يتجنب ، ما وسعه ذلك ، النظر فى الأمور المجردة الميتافيزيقية . فكان فرويد بذلك أكبر من حاول من علماء النفس دراسة اللاشعور دراسة عادت عليه بالشهرة العريضة ونال بها من ذيوع الاسم وانتشار الرأى ما لم ينله أحد من علماء النفس غيره .

حاول أن يتعرف فى خفايا النفس ما أهمله أغلب علمائها من قبل أو ما تغافلوا عنه ، وأن يتلمس الوسائل التى يستطيع بها أن يفهم العمليات العقلية حق الفهم حتى يتمكن من علاج ما يعرض لها من عوج أو علة . فوجه جلّ اهتمامه إلى دراسة الأمور الفطرية وما يختبئ تحت الشعور من الأمور الغريزية ، وما فيها من قوة نزوعية وما لها من أثر فى السلوك جميعه .

فأقام مقابل السيكلوچية الميكانيكية التى عاشت فى النصف الثانى من القرن

---

(١) ويقصد بالتحليل النفسى طريقة فرويد الخاصة فى العلاج ثم مذهبه بصفة عامة . وقد عرض فرويد نظرياته وطريقته فى العلاج عرضاً ممتعاً فى كتابه « مقدمة فى التحليل النفسى » (ترجمه المؤلف ونشرته دار المعارف ١٩٥٠) .

التاسع عشر سيكلوچية تاريخية ، تستقصى العلاقة بين العمليات العقلية عند الفرد متتبعاً فى ذلك منهج الدراسة النشوئية[١] ، فعنى عناية كبيرة بدراسة مراحل النمو فى الطفولة ووصل فى ذلك إلى نتائج هامة كثر النقاش حولها واشتد الجدل وخاصة فيما يتعلق بالميول الجنسية عند الطفل . كما جهد خلال دراسته لكشف أوجه التماثل بين مميزات الأطفال والعصبيين من ناحية ، وبينهم وبين الكبار من البدائيين الذين لم تهذب الحضارة من فطرتهم ، من ناحية أخرى . فوفق بذلك إلى تفسير كثير من عناصر الأساطير والخرافات والنظم الاجتماعية والدينية للمتوحشين ، وألقى بذلك ضوءاً كبيراً على تاريخ الجنس الإنسانى ، واستطاع أن يثبت التلازم بين خطوات النمو فى الفرد وخطواته فى الجنس ، كما ثبت من قبل فى الناحية البيولوچية .

ولم يكن فرويد يهمل فى دراسة نشاط النفس أتفه ما يعرض فى الحياة اليومية من فلتات اللسان أو ترابط الأفكار أو ألوان الرؤى والأحلام والخيال ، فلم يبزّه أحد من علماء النفس فى الاهتمام بوقائع الحياة وما تعرضه الحياة من حقائق وما تفرضه من أوضاع . لهذا كان عالماً أكثر منه فيلسوفاً ، وضع للنفس علماً أكثره خالص يعتمد على التجربة وإن يكن له ولمدرسته لون فلسفى يقرب من المثالية الحسية[٢] كما يقول بها « كارل بيرسون » ، ويبدو ذلك فى رأيه عن العلاقة بين النفس والبدن .

انصرف فرويد إلى دراسة الشعور ومراتبه ، دراسة عميقة مستفيضة سنعرض لها فيما بعد . وحاول أن يصف ما يجرى فى هذه المراتب وصفاً واضحاً معقولا ، فأثبت للعمليات العقلية التى تجرى فيها البقاء والاستمرار لا يعرض لها عدم ولا يقف لها نشاط ، إذ هى دائمة ما دامت الحياة . وبين كيف ينتقل النشاط النفسى وكيف يبقى فى مراتب الشعور المختلفة وإن اختلف مقدار التفطن إليه .

وهو فى يقينه هذا بالتواصل بين العمليات العقلية وارتباطها بعضها ببعض

---

(١) Methode Génétique.

(٢) Sensationalistic Idealism.

يقرر أن النشاط النفسى لا تنفصل ظواهره ولا تتفرق بل تتتابع معلولةً لما يسبقها وعلةً لما يتبعها كما تتتابع الظاهرات فى عالم المادة ، مؤمناً أن ليس فى العالم النفسى محل للصدفة العابرة ، مثله فى ذلك مثل العالم المادى . لأن فرويد يتبع رأى العلماء المعاصرين له فى العلية كما يؤمن إيماناً تامًّا بالحتمية البيولوچية(١) ، معتمداً فى ذلك على الرأى النشوئى الذى يرى فى ظهور الغريزة ونموها فى الفرد صورة لظهورها ونموها فى الجنس .

هذا إلى أن فى مذهب فرويد أثراً بالغاً من تيار الدعوة ضد جفاف المذهب العقلى الحديث ، ومن الرأى الذى يدعو للالتجاء إلى العاطفة والوجدان ؛ فلعلّ المرء يصل بهما إلى الحقيقة التى قصر المنطق والتفكير الخالص عن إدراكها ، ولعل فى الحدس والإدراك المباشر ما ينقذ العقل من قصوره وجفاف منطقه . وبذلك « استطاع فرويد أن يرمم صرح الحدس ويحيى « ميول القلب » وأن يصل بالمرء إلى مثالية فنية حية تشيع فى النفوس ميلها الأبدى لليقين »(٢) .

لهذا كان الوجدان(٣) عند فرويد فكرة كمية . لم يعتبرها اعتبار غيره من الكلاسيكيين كيفاً بسيطاً أو مزاجاً من العناصر النفسية . بل هى عنده كمية متنقلة قابلة للزيادة والنقص تصطبغ بها الذكريات والعقد النفسية اصطباغاً يختلف فى الدرجة والتناسق ، وتنتشر انتشاراً متبايناً على العمليات العقلية كما تنتشر الشحنة الكهربية على سطح الجسم . ولا يفسر التغيرات العقلية إلا اختلاف توزع ذلك النشاط الوجدانى فى النفس .

بل إن لهذا الوجدان ذاتية(٤) خاصة تهيئ له الانفصال عن الفكرة التى يكون متصلا بها للانتشار على الأفكار الأخرى والتأثير عليها تأثيراً بعيد المدى فى النفس وفى السلوك . ويطلق فرويد على ذلك اسم « النقل »(٥)

---

(١) Déterminisme biologique

(٢) Régis et Hesnard : *La Psychoanalyse*, p. 36.

(٣) L' "Affekt"

(٤) Autonomie

(٥) Displacement

ويتصل بالأهمية التى يعلقها فرويد على الناحية الوجدانية ، اعتباره العمليات العقلية نشاطاً ديناميكياً : فهو يرى أن كل عملية تبدأ ساذجة ثم تتضاعف وتقوى كما تتضاعف الصور فى عدسات المجهر ، ويشتد نشاطها خطوة بعد خطوة ويكثر ضغطها حتى تحس النفس بها ضيقاً يدفعها إلى التخفف منه تخففاً يبعث فيها اللذة والرضا .

ويتباين التخفف من الرغبات الفطرية فى تركيبه وتعقده فهو فى الطفل والإنسان البدائى ساذج برىء تتجه فيه النفس ، كاملة النشاط ، نحو إشباع الرغبة التى تتأجج فيها ، ويطلق فرويد على ذلك اسم « العملية الأولية »[١] . لكن النفس لا تتمكن أحياناً من بلوغ هذا التخفف ، فتحاول كف الرغبة الفطرية التى تشعر بها وتجهد فى تحويل نشاطها نحو وجهات أخرى خلال سبل معقدة ملتوية ، ويسمى فرويد ذلك « عملية ثانوية » .

وهذه العمليات التى تجرى فى النفس منذ أيام الطفولة تكوّن على مدى العمر لب اللاشعور وما قبل الشعور .

أما فيما يختص بنشاط العمليات العقلية فقد ذهب فرويد أول الأمر إلى أنه ينتظم وفق مبدأ واحد يقوم على أساسين هما : اللذة التى تنتج من الراحة التى تعقب التخفف من التوتر النفسى ، وتجنب الألم الذى يثيره تجمع النشاط وازدياد الطاقة . فكأن مبدأ اللذة والألم هو الذى يهدىء المرء فى سلوكه ويحدد قيم الأشياء لديه . غير أن مواصلة البحث هدت فرويد ، بعد ذلك ، إلى الوقوف على أن بالنفس مبدأ آخر ، لعله أقوى وأكثر سيطرة من مبدأ اللذة[٢] ، يرغمها على تكرار الأحداث المؤلمة أو الصدمات التى تنزل بها . وكان هذا الكشف سبيلا أدى به إلى استكمال نظريته وإلى القول بوجود غرائز العدوان والموت إلى جانب غرائز الجنس والحياة .

---

(١) Primary Process.

(٢) انظر كتاب فرويد « ما فوق مبدأ اللذة » ترجمة إسحق رمزى ، دار المعارف ، ١٩٥٢

ثم إن فرويد يعتبر الرغبات التى يستشعرها المرء فى طفولته المبكرة ، الأساس المقيم للحياة النفسية على مر الأيام ، ويرى أن الحياة العقلية اللاشعورية لا تتداعى ولا تتحطم بل تبقى الرغبات والميول فيها متفتحة مزدهرة لا تذبل أو تموت . لهذا كانت أشكال السلوك التى تتبين فى مراحل الحياة بعد ذلك تتصل اتصالا لاشعورياً ، فى صميمها ، بحياة الإنسان فى مرحلة الطفولة . وهكذا ينظر فرويد إلى حياة الفرد فى مجموعها كتيار متواصل[١] تترابط فيه الميول وسلاسل الرغبات . وليس انقطاع الصلة بين الظواهر النفسية إلا وهماً يرجع إلى جهل المؤثرات اللاشعورية السابقة ؛ فلو أن فتى فى سن العشرين اتخذ مهنة معينة أو عملا أعجب به يستن به لحياته طريقاً طريفاً ، لم يكن ذلك نتيجة للعوامل الخارجية التى دفعته إلى ذلك ، بل لأن تلك العوامل ابتعثت الرغبات المخبوءة فى ثنايا نفسه منذ الطفولة الأولى . ويعلق فرويد على ذلك أهمية كبرى ، كثيراً مايهملها الآباء والمربون ، لأنه يقرر أن سلوك الإنسان وخلقه يتحددان إلى درجة كبيرة فى الخمس السنوات الأولى من العمر .

أما النسيان[٢] الذى يذهب بتلك الذكريات الأولى ، فهو على قول فرويد ، طاغية كبير ، يعينه على ذلك الطغيان ، عمل الشعور فى انتقاء ما يصح أن يبقى من تلك الذكريات ، بل كثيراً ما يتشوه ما يبقى منها بتأثير أحلام الطفولة المتأخرة وأوهام المراهقة . ويرى فرويد لذلك النسيان خطره وخطورته ، ويقول إنه لولا ألفتنا به ، لعجبنا لعلته ولبحثنا عن علاج له . ويرى أن علته كامنة فى التربية

---

(١) لعل فرويد قد تأثر هنا برأى « وليم جيمس » عند حديثه عن الحياة النفسية واصطناعه فى الحديث عنها تشبيهها بمجرى النهر فى وحدته وتواصله ودوام تغيره . ولعله قد تأثر من ناحية أخرى بفلسفة « برجسون » وحديثه عن « الذاكرة » وتفرقته بين الظواهر النفسية والظواهر المادية وقوله بأن الأولى تمتنع على الكم والقياس « وأنها تتواصل بعضها مع بعض فى اندفاق لا نهاية له » .

على أنه قد يكون من الأرجح أن فرويد قد تأثر على الأقل أيام طلبه على « شاركو » بالنزعة العامة فى فرنسا حينذاك ضد المذهب الميكانيكى العلمى وبالدعوة إلى المذهب الروحى التى قام بها « مين دى بيران » و « رافيسون » و « لاشلييه » .

(٢) L'Amnésie.

التى يتلقاها الصغار فى فجر العمر حين يقبلون إلى هذا العالم وبين جوانحهم من الشهوات والميول ما يتشوف إلى النشاط والإشباع ، لكن هذه الميول على سذاجتها وبراءتها لا تتوافق مع المستوى الذى يعيش عليه البالغون ، ولا تقرها المعايير التى تواضعوا عليها ، فتعمل التربية عندئذ على فطم الطفل عنها وعلى تشهيته إلى القيم التى يتواضع عليها المجتمع ، ويسمى فرويد هذه العملية « بالتسامى » [١] .

وهكذا تكبت الرغبات الفطرية وتدفن حية فى اللاشعور فلا تدركها الذاكرة وتلفها غيابة النسيان . لكنها تبقى أبد العمر عاملة نشيطة . فإذا لم تكف طرق التسامى بها لتخفف من الطاقة التى تحتوى عليها اتخذت النفس لذلك أساليب متعددة ولو عن طريق المظاهر المرضية ، فتظهر أعراض الأمراض النفسية أو (العصابية) [٢] حتى تكون إشباعاً مقنعاً لتلك الرغبات المكبوتة فى أعماق النفس. ومن أهم الفروق بين هذا التعبير المقنع عن الرغبات الفطرية اللاشعورية ، على المنوال العُصابى ، والتعبير عنها بوساطة التسامى ، هو أن هذا النشاط الأخير نافع للمجتمع بينما يكون الأول مؤذياً للجماعة وللفرد معاً .

---

(١) Sublimation.

(٢) Névroses.

الفصل الثانى

الميول الجنسية

ثار أكثر النقاش والجدل ضد نظرية فرويد فى الميول الجنسية . وسنعرض لذلك فيما بعد . غير أنه يمكن القول الآن ، إن كثيراً من هذا النقد انبعث من قوم أساءوا فهم ما قال به فرويد ، كما أن كثيراً من هذه المعارضة يعود إلى نفور الجماعة التقليدى من الحديث المكشوف عن الميول الجنسية وما يتصل بها . وإلى ما تعوّدوه من استحياء وخجل إزاءها[1] هذا إلى غموض كثير من آرائه ، وما اعتورها من تغير خلال تطورها وخلال رده على النقد الذى وجه إليه عنها .

على أنه يجب أن نقرر أولا أنه يستعمل لفظ « الجنسى » على منوال أرحب من الاستعمال المألوف ، وهكذا يدخل فيه وظائف لم تكن تعتبر من قبل ذات طبيعة جنسية . ومع هذا يقرر فرويد أنه لا يود بذلك أن يشوه المعنى المعروف لهذا اللفظ . لأنه يقول إنه ارتأى بالتجربة أن كثيراً من الظواهر النفسية تنبع من الغريزة الجنسية على خلاف ما تعارف عليه الناس . ويقول أتباعه انه بذلك لايوسع « مفهوم » كلمة الجنس بل « ماصدقاتها »[2] ، فلا شك أن ماصدقات فكرة الجنس عنده أوسع بكثير من الماصدقات التى تواضع عليها الناس . غير أنهم

---

(١) وفى هذا يرد فرويد على من ينقدونه بقوله ، فيما قال : « أما فيما يتعلق بتوسعتنا لمعنى الجنس وزيادتنا فى ماصدقاته ، تلك التوسعة التى فرضها علينا التحليل النفسى للأطفال ولمن يسمون بالمنحرفين ، فإنا نرد على أولئك الذين يلقون من عليائهم نظرة احتقار على التحليل النفسى بأن الأجدر بهم أن يذكروا أن التوسع فى معنى الجنس إنما يقرب به من فكرة الحب (إيروس) عند أفلاطون الفيلسوف الإلهى الطاهر » .

Freud : *Trois Essais sur la Théorie de Sexualité*, p.15

(٢) Jones : *Papers on Psycho-analysis*, IVth Ed., p. 18.

يقولون إنه من الخطأ أن يقال إنه يفهم لفظ الجنس أو يستعمله استعمالا يخالف الاستعمال الشائع فى كثير أو قليل .

ويتعرض الجانب الأكبر من نظريته للميول الجنسية عند الطفل ونشاطها فى نفسه منذ السنين الأولى ؛ إذ هو يقرر أن الرغبات الجنسية ، كما يقصد الناس جميعاً بهذا اللفظ ، تثور فى نفس الطفل وتوجد بها وجوداً لا شك فيه . ويشبه بعضهم هذا الخلاف بما نشأ بين الكيماويين حين قال نفر منهم بعد الاهتداء إلى وجود الأزوت فى الهواء أنه يوجد متحداً مع مواد أخرى فى الأجسام الصلبة ، فأنكر سوادهم هذا الرأى واتهموا أصحاب هذه الفكرة بإساءة استعمال اللفظ ، ثم ثبت بعد ذلك صحة فهم هؤلاء للفظ عند ما تحققت نظريتهم . وكذلك شأن فرويد عند ما يصف جانباً من العمليات العقلية للطفل بأنها جنسية يقرر أنها كذلك فى الواقع ، شأنها فى ذلك شأن ما يجرى من مثيلاتها فى نفس البالغ .

ويقول إن قليلا من التأمل كفيل بأن يبين لنا أنه حتى لو كان تعريف اللفظ يحد الميول التى تتصل بالغريزة التناسلية [١] وحدها لكان من العسير أن نقصرها على البواعث التى تؤدى مباشرة إلى العملية التناسلية ؛ فلا يمكن مثلا أن ينكر أحد أن « التميمة » [٢] أمر جنسى بكل ما يحمل ذلك اللفظ من معنى ولو أنها فى صميم طبيعتها سلب ونفى للعملية التناسلية مثلها فى ذلك مثل جلد عميرة [٣] (أو العادة السرية) .

هكذا يشمل « الجنس » فى التحليل النفسى كل الميول الجنسية الصريحة وغيرها من الميول التى كانت جنسية من قبل وتحولت نحو غايات غير جنسية ،

---

(١) L'instinct reproductif

(٢) fétichisme من اللفظ البرتغالى Feitiço وهو الاسم الذى أطلقه البرتغاليون على آلهة القبائل المتوحشة فى أفريقيا – ويطلق فى الإنجليزية والفرنسية Fétiche على الرقية أو التميمة ، ويقصد « بالتميمة » فى التحليل النفسى إشباع الرغبة الجنسية بجزء من المعشوق أو ما يتصل به مثل القدم أو الشعر أو القفاز إلخ .

(٣) Masturbation وهو الحصول على اللذة باستعمال اليد عادة .

كما أن الغريزة الجنسية ، عند فرويد، تبقى عاملة فعالة من المهد إلى اللحد، مهما تنكرت الأشكال التى تظهر بها .

والغريزة الجنسية تمر فى مراحل مختلفة حتى تصل إلى النضج فإذا قصرت عن الانتقال من مرحلة إلى التى تليها ، عرض لها نوع من « التثبيت » (١) وينبغى أن يمر الإنسان بتلك المراحل مرتين فى حياته : مرة فى السنوات الخمس الأولى ومرة أخرى فى السنين التى تتبع مطالع المراهقة (٢) — ومع ما يوجد بين المرحلتين من علاقات فإنه لا يوجد بينهما تماثل لأن الفروق البدنية والعقلية بين الطفل والبالغ لا تهيئ بتاتاً أى تماثل بينهما . ورغم ذلك فإن النمو والنضج فى المرحلة الثانية يتحدد فى أكثر أشكاله بطبيعة النمو فى المرحلة الأولى .

ويبحث فرويد فى مراتب نمو الغريزة الجنسية من وجهتين :

ا — الوجهة الأولى : دراسة طبيعة ذلك النمو وعلاقته بمناطق الجسم التى يشيع فيها الشعور الجنسى فيقول إن الميول الجنسية أو الشهوانية(٣) للطفل تكون أول الأمر غامضة منتشرة على جلده كله ، ولو أنها تبكر فى التركز حول بعض المناطق التى تبعث اللذة :

(١) فالمنطقة الأولى هى الفم : هو عضو الرضاعة والتغذى حقاً ، إلا أنه من الجلى أن الطفل يشعر بلذة خاصة من مص الثدى حتى الصناعى منه ثم يمص بعد ذلك أصابعه أو ما يصل إليه . بل إن التقبيل عند الكبار أو التدخين وما إلى ذلك من الأفعال التى تتصل بالفم تعود كلها إلى تلك اللذة الأولى التى تنبعث فى المرحلة التى يسميها فرويد « مرتبة التعشق الفمى » (٤) وهى تمر بخطوتين : يميل الطفل فى الخطوة الأولى منهما إلى وضع كل شىء فى فمه والإبقاء عليه فيه ،

---

(١) Fixation وهو بقاء الغريزة الجنسية ملتصقة ومعلقة بأحد مراتب النمو الأولية.

(٢) Puberté

(٣) Tendances Sensuelles

(٤) Erotisme oral

فيكون ذلك الوجه من النشاط وجهاً إنشائياً . وفى الثانية يميل الطفل إلى تحطيم الشيء وتجزئته ولفظه من فمه أو قيئه ، فيكون النشاط فى هذه المرحلة الفوهية المتأخرة نشاطاً قاذفاً هداماً .

(٢) ثم تنتقل اللذة بعد ذلك إلى منطقة الشرج فيكون للتعلق الشرجى[١] هنا مرحلتان أيضاً على التتابع . لكن الواحدة تتبع الأخرى على عكس تتابعها فى المرتبة الفمية ، فتبدأ اللذة بالميل إلى القذف والإخراج أى بالوجه الهدام ثم بالميل إلى الإمساك والإبقاء ، أى بالوجه الإنشائى .

(٣) وتتركز الميول الجنسية أخيراً حول أعضاء التناسل نفسها على مرحلتين : المرحلة القضيبية[٢] ، ثم المرحلة التناسلية الصحيحة[٣] .

فإذا ما مر الطفل بالمرتبتين الفمية والشرجية دخل فى فترة الكمون[٤] التى تمكث حتى مطلع المراهقة حين تنبعث اللذة المتصلة بهما انبعاثاً قصير المدى قبل أن يبلغ النضج الجنسى الكامل .

ومن الطريف أن أصحاب التحليل النفسى ينسبون كثيراً من مظاهر الأخلاق وآداب السلوك[٥] إلى ما يبقى من آثار لهذه المراتب المختلفة : فينسبون « السادية »[٦] والتعارض[٧] مثلا إلى ما يبقى من ميول المرحلة الفمية المتأخرة والشرجية المبكرة حين يكون الميل للتحطيم قوياً غلاباً . ويفسرون كثيراً من أشكال

---

(١) Erotisme Anal (٢) Phase Phallique

(٣) Phase Génitale (٤) La période de latencesexuelle

(٥) كتب فرويد وأتباعه بحوثاً طريفة طويلة عن ذلك منها فصل فى كتاب :

Jones : *Papers on Psycho-Analysis*, ch. 24 : Anal-Erotic Character Traits

(٦) Sadisme وهى الحصول على اللذة الجنسية مع إنزال الألم البدنى أو المعنوى على الطرف الآخر ويقابلها الماسوكية Masochime

(٧) Ambivalence وهى وجود الميول المتعارضة بالنفس فى آن واحد نحو شيء واحد كالكراهية والحب لأمر ما .

النشاط عند الناس جميعاً ، والمرضى منهم على الأخص، على قدر مرور ميولهم الجنسية بمراتب النمو المختلفة خلال الطفولة .

ب ــ أما الوجهة الثانية لدراسة الغريزة الجنسية عند فرويد ، فهى النظر إليها من حيث الموضوع الذى تلتمس فيه إشباعاً لها، ويقول إن الطفل من هذه الناحية يمر بالمراتب الآتية :

(١) مرتبة « التعشق الذاتى »[١] : حين لا يدرك الصغير لنفسه كياناً مستقلا موحداً ، ولا يكون لديه تفطن إلى وجود نفسه كوحدة متمايزة ؛ فلا يستطيع فى تلك المرحلة أن يشبع ميوله الجنسية حتى على بدنه فى مجموعه العام ، فيلتمس اللذة على أجزاء منه كفمه ، أو أذنه أو ما تحت أبطيه أو ما بين فخذيه ، وغير ذلك .

(٢) المرتبة « النرجسية »[٢] : تكون الذات قد تبينت واتضحت وحدتها وهنا يأخذ الطفل ذاته كلها غاية لعشقه ، فيهيم بنفسه ويعتبر بدنه كله « شيئاً » يولع به أكثر من ولوعه بأى شىء آخر خارج عنه .

(٣) مرتبة « تعشق الغير »[٣] : تبدأ حين تتجه الميول الجنسية للطفل نحو غيره من الأشخاص : فيميل أولا نحو أشخاص من نفس جنسه ، ثم نحو غيرهم من الجنس الآخر ، ويكون لهذه المرتبة إذن مرحلتان هما : مرحلة «الجنسية المثلية»[٤] ثم مرحلة «الجنسية الغيرية»[٥].

---

(١) autoérotisme وهو كما عرفه هافيلوك أليس : « الانفعال الجنسى التلقائى الذى يثور بالنفس دون مثير خارجى » .

(٢) Narcissisme اشتقت من الأسطورة الأغريقية عن « نرجس » الذى هام بنفسه وطال نظره إلى مياه البحيرة معجباً بجماله حتى حولته الآلهة إلى الزهرة المعروفة بهذا الاسم

(٣) Alloérotisme

(٤) Phase Homo-sexuelle

(٥) Phase Hétero-sexuelle

ومن أصول النمو السليم أن يمر الصغير بتلك المراتب مع التخلص من المرتبة الواحدة للوصول إلى المرتبة التى تليها . لكن الصعوبة تقوم مثلا فى المرحلة الأخيرة حين يتعلق الطفل بالكبار من الجنس الآخر وخاصة بوالديه حين يتعشق الطفل أمه أو الطفلة أباها . وتتكون العقدة الأوديبية (١) التى يعتبرها فرويد العقدة الأساسية فى اللاشعور ، ويعتمد عليها سلوك الطفل ومزاجه فى كبره وتكون كذلك علة لأى شذوذ قد يعرض له ، ذلك لأن الطفل بعد مرحلة التعشق الذى لا موضوع له سوى نفسه يتخذ من أمه موضوعاً لحبه ، فيغار من أبيه الذى يشاطره عطفها ، ويود لو غاب هذا الأب وخلت حياتهما منه . ويلعب الحل الذى تنتهى إليه هذه « المأساة العائلية » التى تدور حول حب الولد لأمه وكراهيته لأبيه (والعكس عند البنت) دوراً بالغ الأهمية فى مستقبل الطفل ، والمهنة التى يتخذها ، والصحاب الذين يألفهم ، والزوج التى يختارها ، كما تؤثر فى مظاهر خلقه وفى علاقاته بالناس .

هذا إلى أن أوضاع الحضارة تدفع بالطفل إلى كبت تلك الميول ، حيث تظل مخبوءة فى اللاشعور طوال حياته ، إذا قسم له أن ينشأ فرداً سوياً يستطيع أن يتسامى بها حتى تتوافق مع آداب السلوك ومبادئ الأخلاق ، أو تعلو به إلى آفاق الإنتاج فى العلم أو الفن أو الإصلاح الاجتماعى وما إلى ذلك . وقد تظهر هذه الميول المخبوءة بين الحين والحين فى أشكال رمزية مموهة فى أحلام المرء أو فلتات قلمه ولسانه أو فى نسيانه . كما أن بعض الناس قد لا يوفق إلى كبت تلك الميول ، فتؤدى به إلى شذوذ فى الخلق أو إلى بعض أشكال العصاب والأمراض العقلية .

---

(١) نسبة إلى أوديب بن لايوس ملك طيبة الذى كتبت عليه الآلهة أن يقتل أباه ويتزوج أمه دون أن يعرفها (إلى آخر الأسطورة اليونانية) ؛ ومن هنا اشتق فرويد اسم الرغبة (اللاشعورية غالباً) فى التخلص من الأب والاستحواذ على الأم .

الفصل الثالث

اللاشـــعور

مما توفر عليه ، فرويد أيضاً ، دراسة العمليات العقلية من حيث مقدار التفطن إليها ، وقد أخرج من ذلك نظرية واضحة قوية لعلها خير جوانب مذهبه . وهو يرى[1] أننا إذا أردنا — تيسيراً للأمر فقط — أن نكون صورة مكانية للعمليات العقلية كان من اللازم أن نفرق بينها من حيث استقرارها فى مناطق ثلاث للشعور :

أولها هوالشعور العادى الذى يشمل كل الأفكار التى نتفطن إليها تفطنا واضحاً أو غامضاً فى أى وقت معين . ثم ما قبل الشعور[2]، وهو محدود الحيز بالنسبة للمرتبة التى تسبقه وتلك التى تتبعه ، وهو مرتبة وسيطة بين الشعور واللاشعور تشمل ظاهرات التخيل وشرود الذهن [3] والوحى التى تكشف لنا عن كنه الحقائق الداخلية والتى تكون بمثابة الانعكاس أو الصدى لما يتردد فى جنبات اللاشعور. ويمكن أن يشبه ما قبل الشعور بمدخل إلى الشعور ، فكل الأفكار قبل الشعورية يمكن أن تكون شعورية فى الظروف التى تستلزم ذلك إما بجهد خاص تبذله الإرادة لاسترجاعها أو بوساطة الترابط والتداعى . ومع ذلك توجد فصيلتان للأفكار قبل الشعورية : الأولى منهما تشمل الأفكار التى يسهل التفطن إليها دون كثير من الجهد مثل الذكريات القريبة . والثانية تشمل الأفكار التى

---

(١) يلح أصحاب المدرسة التحليلية دواماً فى القول بأن الحياة النفسية كيف ونشاط دافق خالص لا ينبغى إدراكه على منوال إدراكنا للأمور الثابتة .

(٢) Préconscient. (٣) Rêverie et distraction.

لا يمكن الشعور بها إلا بكثير من العسر ؛ وقد ثبت أن هذا الصنف الأخير يرتبط ارتباطاً وثيقاً باللاشعور مما يسبب صعوبة استرجاعه .

ثم يوجد اللاشعور الخالص ، وهو أكبر المراتب النفسية خطراً وأعمقها أصولا فى النفس ، لأنه يشمل القوى الموجهة للتفكير والنشاط ؛ كما يحتوى على الميول البدائية والغرائز الفطرية التى تسيطر على سلوك الفرد وتبعث الحركة وتقيم الطاقة فى حياة المرء النفسية كلها .

ويوجد غير ذلك عامل يقرر وجود الفكرة فى أية واحدة من هذه المراتب الثلاث سماه فرويد « الرقابة » (١) وهى على أشد أشكالها تقع بين اللاشعور وما قبل الشعور ، ولو أن هناك رقابة لينة بين ما قبل الشعور والشعور نفسه .

إذا تركنا هذا الوصف الطبوغرافى للنفس ، رأينا فرويد يعرض وصفاً ديناميكياً لما يجرى فى هذه المراتب فيقرر أنه يوجد فى أعماق النفس ، أى فى المراتب اللاشعورية ، عدة من الميول البدائية والدوافع الغريزية ، دائمة الحركة والتحفز تحاول على الدوام أن تلتمس لنفسها مخرجاً ، جاهدة لإشباع نفسها والتخفف من النشاط والتوتر الذى يعتمل فيها . ولما كانت تلك الدوافع ذات طبيعة غير شخصية وتعود إلى تراث النوع الإنسانى كله ، أطلق عليها فرويد ضمير الإشارة الغائب فى اللاتينية الذى يقابل عندنا فى العربية ضمير الشأن (٢) وهكذا يكون « الهو » على رأى فرويد ، الينبوع الغريزى الذى تفيض منه الطاقة النفسية وهو العماد المكين للعقل كله .

وفى مطلع النمو يتميز جانب من « الهو » عن غيره بتأثير صلته بالعالم الخارجى فيعمل على إيجاد الصلة بين الفرد والظروف التى تحيط به ، ويطلق فرويد على هذا الجانب لفظ « الأنا » (٣) وهو تلك القوة التى تبث فى كل منا الشعور بكيانه وبشخصيته . ولا يتعلق كل « الأنا » بالشعور نفسه ، بل إن كثيراً من مقوّماته

---

(١) La Censure

(٢) Id وسوف نعبر عنه بـ « الهو » .

(٣) Ego

الهامة تبقى فى اللاشعور الخالص الصرف مخبوءة بعيدة عن منال الشعور . ويتخذ هذا « الأنا » منذ وقت مبكر موقف الناقد والمهذب إزاء « الهو » الذى يبقى على الدوام فطرياً مسرف السذاجة ، فيسمح له «الأنا» ببعض رغباته التى تتطلب الإشباع ولا يرضى عن البعض الآخر فيدحضه ويسفهه .

هذه العملية الأخيرة نوع من الكبت [١] إذ أن الكبت لا يقتصر فحسب على الإمساك بجانب من الخواطر والرغبات عن الشعور ، بل يمنع « الهو » عن القيام بما لا يقره « الأنا » . وهكذا تصبح تلك الرغبات المكبوتة جانباً معيناً من « الهو » حتى لكأن المرء يقول : « أنا (بنفسى أو ذاتى) أود أن أفعل هذا ، لكن أمراً آخر غير نفسى (الهو) يهتف بى أن أفعل ذاك » .

وكما أن جانباً من « الهو » ينفصل عنه فيكون الهو المكبوت ، كذلك ينفصل خلال النمو جانب من « الأنا » فيكون « الأنا الأعلى »[٢] ووظيفته تهيئه للاتصال بالهو أكثر من اتصال « الأنا » نفسه به ، لأن عليه أن يرقب العلاقات بينهما وأن يعمل كحارس يحذر « الأنا » من الأخطار التى يتعرض لها إذا قبل الاستجابة للرغبات المكبوتة التى تصدر عن « الهو » . ويعرف ذلك بعمل الرقابة التى عرضنا لها من قبل . ومما يقوله فرويد إن عملية الكبت نفسها يقوم بها « الأنا » لا « الأنا الأعلى » ولو أنه يقوم بها تبعاً لإملاء الأخير . ويتكون «الأنا الأعلى » من العشرة مع الأهل فى السنين الأولى من العمر وما يتواضعون عليه من قيم ومعايير مختلفة ، وهو يقوم على الصلة الوجدانية التى توجد بين الصغير وأهله . لكنه مع ذلك لا يبقى على الدوام نسخة أمينة للتعاليم التى تصدر عنهم .

ويقول فرويد وأتباعه إن نظريته فى اللاشعور رأى استقرائى خالص قام

---

(١) Répression وهو أن يقبض عن الشعور من العمليات النفسية ما قد يكون فيها إيلام له .

(٢) Super-ego.

خطوة خطوة على التجارب الصحيحة دون أن تدخل فيه أية فروض نظرية سابقة للتجربة ، ويعتقدون أنها نظرية علمية تقابل النظريات الفلسفية عن اللاشعور ... وهم كذلك يدّعون أنه بدلا من أن يبدأ بأية فكرة عامة أو خاصة عن معنى اللاشعور ، أخذ يبحث فى العمليات العقلية الأولية التى لم يكن مرضاه يستطيعون التوصل إليها مباشرة بوساطة الاستبطان والتى لم يكن يمكن الاهتداء إليها إلا خلال أفانين خاصة مثل التحليل النفسى ، فوصل من هذه البحوث إلى تكوين نظريته عن اللاشعور التى تتميز بما يأتى :

إن وجود اللاشعور فى صميمه نتيجة للكبت ، أى أن العمليات اللاشعورية إن هى إلا رغبات وأفكار لا تتوافق مع شعور المرء فتحرم من دخول الشعور بتأثير العوامل الكابتة التى تقوم على المعايير الخلقية بأوسع معانيها ؛ لأن تلك الرغبات تتعارك مع المستويات الخلقية أو الاجتماعية أو الجمالية التى يؤمن بها شعور المرء فلايستطيع أن يطيق لتلك الرغبات وجوداً ، ويرفض إلى ذلك أن يعترف حتى بوجودها بين طيات نفسه .

ويتميز اللاشعور أيضاً بطبيعته الديناميكية فهو ليس مستودعاً للأمور الخاملة الساكنة ، بل منطقة يجرى فيها عمل هام جليل النشاط ؛ لأن العمليات اللاشعورية نزوعية أصلا إذ أنها رغبات تسعى أبداً نحو ما يشبعها فى عالم الواقع أو فى عالم الخيال .

ويتصل بذلك علاقة اللاشعور الوثيقة بالغرائز الفطرية الأولية لأن اللاشعور هو أقرب مراتب النفس إلى الغرائز البدائية التى نرثها قبل أن تخضع لعوامل التهذيب التى تتناولها بها التربية ، تلك العوامل التى تترك من التأثير وتبعث من العراك قدراً خطيراً قبل أن تبلغ غايتها ؛ إذ أن الفرد قد يبقى ، دون التربية ، حيواناً تسيطر عليه ميول الأنانية والغيرة والاعتداء والقسوة والغرور ، دون رعاية لحاجات غيره ، أو اهتمام بالقيم الاجتماعية والخلقية التى تؤمن بها الجماعات المتحضرة . ومع ذلك فقد تبين ، خلال التحليل النفسى ، أن هذا الجهد الذى

يبذله الناس فى تهذيب الفطرة الموروثة نادراً ما يبلغ حد الكمال، بل تبقى مجموعة كبيرة من الميول الفطرية خشنة غفلا ، مدفونة فى اللاشعور طوال العمر تحاول جاهدة أن تظهر، وكثيراً ما ينزلق الفرد إلى الانقياد لها إذا ما غافلته واستطاعت أن تنتهز الفرصة لنشاطها .

ويرى فرويد أن تقسيم العقل إلى مناطق شعورية ولا شعورية يبدأ منذ الطفولة المبكرة بل لعله يتم منذ السنة الأولى . وينتج هذا التقسيم من العراك بين التراث البدائى غير الخلقى (١) الذى نفد به إلى هذا العالم وبين قوى الكف(٢) التى تحاول أن توفق بيننا وبين مستويات الجماعة ، فتكبت الميول الأولية ويتحول أكثر نشاطها نحو غايات اجتماعية كما تصدر عنها الطاقة التى تذكى ضروب النشاط الشعورى . وهى إن منعت من الظهور لم يعنِ ذلك أنها قد انمحت بل إنها قد ألزمت بالبقاء تحت السطح تلتمس مخرجاً لها ولو فى سبل ملتوية معوجة .

ولا يتجاهل اللاشعور ، لطبيعته الطفلية ، معايير الخلق فحسب بل معايير المنطق أيضاً؛ إذ أن للاشعور منطقاً خاصاً هو منطق الانفعال والوجدان لا منطق التفكير والاستدلال ، حتى ليمكن أن نقول إن اللاشعور لا منطقى .

كذلك يرى فرويد أن الميول الجنسية تسيطر على الجانب الأعظم من اللاشعور ، ولا يرى فى هذا معارضة لطبيعته الطفلية لأن فرويد يقرر ملازمة الميول الجنسية للإنسان منذ طفولته ، وحاول هو وأتباعه أن يثبت نشاط تلك الغريزة وعملها فى نفس الصغير قبل سن المراهقة بزمن طويل قد يبدأ منذ السنين الأولى، ولو أنهم برّروا نظريتهم هذه بأن الميول الجنسية للطفل تختلف عن ميول البالغ فى أن الأولى غامضة ساذجة فى طبيعتها تصل فى تأثيرها إلى حد توجيه ميول الطفل نحو أقاربه من الجنس الآخر

---

(١) أى الذى لا يصلح للحكم عليه بالخير أو الشر Non-moral

(٢) Inhibition.

مما يكون فى نفسه عقدة المحارم[١] .

تلك هى الصفات البيولوجية للاشعور ، أما صفاته الفلسفية التى تستخلص من آراء فرويد فنعرض موجزاً لها فيما يأتى :

إن مبدأ اللذة والألم — إلى جانب الميل إلى التكرار — هو الذى ينظم العمليات العقلية اللاشعورية بينما تسير العمليات الشعورية تبعاً لذلك المبدأ مع النظر ، علاوة على ذلك ، إلى الواقع والحقيقة الخارجية .

ليس لما يجرى فى اللاشعور أية علاقة بفكرة الزمن إذ أنه لا يوجد فى تلك المرتبة من مراتب العقل أى توقيت أو زمان . وهكذا يساعد انعدام الزمن فى اللاشعور على التكثيف[٢] ، الذى يمكن بواسطته أن يلمح اللاشعور الحوادث المتباعدة بعضها عن بعض فى الزمن كأنها متجمعة بعضها إلى بعض ، إذا كان بينها أى نوع من الترابط أو العلاقة .

هذا إلى أن العمليات اللاشعورية منعزلة عن الحقائق الخارجية انعزالا عجيباً ، لهذا لا يمكن التأثير عليها بأية وسيلة إلا إذا استطعنا إخراج ما فى اللاشعور إلى الشعور حتى يمكن صوغها فى ضوء الحقيقة والواقع .

ثم إنه لا يوجد بين عمليات اللاشعور فى نفسها مع ما قد يوجد بينها من اختلاف وتباين أى تناقض ، لأن الأفكار مهما تعارضت أو تناقضت بعضها مع بعض من الناحية المنطقية فهى تتلاصق فى اللاشعور متناسقة منسجمة . كذلك ليس فى اللاشعور أية فكرة عن السلب أو النفى لأن الأفكار اللاشعورية لا يمكن أن تصاغ إلا فى عبارات إيجابية إذ أن « لا » على قول فرويد ، ليس لها أى وجود فى اللاشعور .

ويتصل بهذا القول حقيقة أخرى هى أن الأفكار المتناقضة فى اللاشعور يمكن أن تحل الواحدة منها محل الأخرى وأن تأخذ المعنى نفسه . وقد بقى

---

(١) هو اتصال المرء اتصالا جنسياً بأحد أقاربه الأقربين ، أو الرغبة فى ذلك ، وهى لاشعورية فى الغالب .

(٢) condensation وهو اتحاد المعانى فى اللاشعور .

هذا الكشف عجيباً عسيراً على الفهم حتى اتضح أن هذه الظاهرة وجدت فى الأشكال الأولى للغات « فى المعانى المتناقضة للألفاظ الأولية » .

هذا إلى أن الرغبات التى توجد بالشعور تتصل بالموضوع الذى تمسه وليس لها باللفظ الذى يطلق عليها أو يتصل بها أية علاقة ، لأن صياغة الفكرة فى ألفاظ من عمل الشعور الخالص أو ما قبل الشعور .

تلك الخصائص هى أهم ما يحدد رأى أصحاب التحليل النفسى عن اللاشعور ، وهى ، كما يذهبون ، حقائق استمدت من التجربة ويمكن التحقق منها بالطرائق العلمية .

الفصل الرابع

نظرة إلى مذهب فرويد

تعالت الأصوات ضد فرويد وكثر ناقدوه ، كما انتشرت بعض آرائه انتشاراً سريعاً على رغم ذلك وتناولها العامة والخاصة ، وكثر ترددها حتى أصبحت متعارفة شائعة شيوعاً يبلغ حد الابتذال ، كما تعدّت المؤلفات عنها والدوريات التى تكتب فيها كل حصر .

ومع أن نظريته لم تكن فى صميمها إلا تكملة لمقدمات كثيرة سبقه بها المفكرون فى الفلسفة والبيولوجيا . ومع ما كان يبدو فيها من تطرف صارخ يستلزمه الرأى الجديد ومن لمعة قد تصدر عن الكشف الكبير فتفسد أصول التفكير ، إلا أنه ليس من شك أن فرويد كان أكبر من أقام فى علم النفس أصولا تناهز ما أقامه نيوتن فى الطبيعة أو هارفى فى الطب . ومع ما قد يتهافت من جوانب مذهبه ، وما هو فى حاجة ملحة إليه من ألوان الصقل والتهذيب إلا أن ما يمكن أن يستخلص منه يعتبر مع ذلك رأياً له قيمته الكبيرة وقدره الموضوعى .

يعود بعض النقد الذى وجه إلى مذهب فرويد إلى إيمانه باللاشعور ، إذ هو بهذا يصارح الناس بأن كل صنوف النشاط التى تصدر عنهم تعود إلى ما يوجد فى أعماقهم من فطرة توجه التفكير والسلوك على اختلاف أشكاله وأساليبه ، مع أن الناس بطبيعتهم يميلون إلى الفخر بقوة إرادتهم وإلى إظهار الحزم فى تقرير سلوكهم بأنفسهم ؛ وينكرون أى أمر فى أعماق نفوسهم يوجه نشاطهم دون وعى منهم إلى ما يرضون لأنفسهم أو ما لا يرضون .

هذا إلى ما يمكن أن يوجه إلى نظرية اللاشعور نفسها ، من نقد منطقى وفلسفى عرضنا له من قبل .

أما أغلب النقد فقد وجه إلى نظريته عن الميول الجنسية ، وكان نقداً لاذعاً قويًّا ، دفعه هو إلى توضيح كثير مما قال به وإلى توسيع معنى الميول الجنسية عند الإنسان حتى وسعت الحياة الوجدانية كلها ، بل الحياة الخلقية والجمالية والفكرية أيضاً ؛ وكثر احتجاج فرويد على اعتبار مذهبه « تحليلا نفسيًّا سوقيًّا » لا يبحث إلا عن الحاجات الجنسية الأولية وما يؤدى إلى العملية التناسلية على أبسط أشكالها . لكن ناقديه ، على الرغم من ذلك، أخذوا عليه أن أغلب الأمثلة والتطبيقات التى سردها هو بنفسه تبين أن الغريزة الجنسية على أكثر ألوانها سذاجة هى الأساس الأصيل عنده لأكثر العمليات العقلية للمرء . حتى لقد اعتبر بعضهم مذهبه نظرية للقيم لها صفة الوحدانية مثلها فى ذلك مثل المذاهب الفلسفية التى تُرجع كل ضروب النشاط إلى غريزة البقاء والتناسل ، وقالوا ان نتيجة الفرض الذى وضعه فرويد : « هو أنه ممكن التطبيق على كل شىء » ولهذا لا يمكن أن يثبته أى شىء[1] . لكن الواقع أن هؤلاء النقاد لم ينصفوا الرجل فيما نسبوه إليه ، لأنه إن كان قد انصرف إلى الإشادة بالغريزة الجنسية فى مؤلفاته الأولى ، فإنه سرعان ما استكمل مذهبه بعد ذلك وقرر فى صراحة وتوكيد أن مواصلة البحث تدفعه إلى القول بنظرية إثنينية تقرر وجود الكراهية إلى جانب الحب ، وغريزة الموت إلى جانب غريزة الحياة .

ومن ألوان النقد التى وجهت إلى التحليل النفسى ،أن فرويد وأتباعه، على صواب كثير من آرائهم وعلى الجهد الذى يبذلونه لاصطناع الطريقة العلمية فى أبحاثهم ،يعرضون لدراسة النفس ويبحثون فى أمراضها بفكرة سابقة فى أذهانهم وبفرض يلتمسون له الإثبات فحسب ولا يتريثون لقبول ما يدحض

(١) Dumas : *Traité de Psychologie* (Lalande : Introduction p. 31)

هذه الفكرة أو ما يشبهها. وقد عتب « جونز » على « چانيه » مرة أنه لم يقم بتحليل نفسي ولو مرة واحدة ، وأنه لو كان قد قام به مرة لسلم حتما بأن عيوب الوظائف الجنسية إن هى إلا اضطرابات خاصة ترجع إلى خطوات النمو الأولى فى حياة المرضى الجنسية . فأجابه جانيه قائلا : « يؤسفنى أن أقرر أن الحق مع السيد جونز فى أننى لم أقم بأى تحليل للنفس (على مذهبكم) ، أى لم أفسر أقوال المرضى تبعاً لعقيدة آمنت بها من قبل ، ولم أستطع أن أقوم بأى تحليل ، لأننى لا أومن بتلك العقيدة ، إذ أننى أقصر بحثى على التماس الحقيقة وحدها »[1] . والمغالطة فى هذا القول واضحة لأن جانيه قد وقع فيما كان يعيبه على أصحاب التحليل من الاستمساك بفكرة سابقة لا يحيد هو عنها — هى إنكار حقائق التحليل قبل اختبار صحتها .

وكان من أشكال النقد الأخرى : أن ما قد يكون فى النظرية الجنسية التى يقول بها التحليل النفسى من صواب وتوفيق فى دراسة الأمراض النفسية لا يبرر تعميم النتائج التى تظهر فى تلك الناحية على الحالات السوية للناس جميعاً . فقد يمكن أن تلقى الحالات المرضية للنفس ضوءاً على العمليات العقلية فى حالات الصحة ، غير أنه من العجيب — كما قيل — أن نتخذ أحكام المرض أحكاماً للصحة وأن نخرج من ذلك جميعه بمعيار واحد يجعل من الناس كافة كائنات مليئة بالعقد والانحرافات ، حتى تصبح هذه العقد قانوناً يفسر لنا نشاط القوم مهما اختلفوا فى الزمن أو البيئة أو ظروف المجتمع . لكن هذا النقد سرعان ما ينهافت ، إذا ما ذكرنا أن الثابت من الملاحظة والواقع : هو أن الفرق بين الصحة والمرض لا فى الأمراض النفسية وحدها — بل فى بعض النواحى البدنية — إن هو إلا فرق فى الدرجة والكم لا فرق فى النوع والكيف . هذا إلى أن من بسائط المعلومات التى يقررها علم الإحصاء : أن أية ظاهرة فى عالم الأحياء تتبع فى توزيعها شكل « المنحنى التكرارى

(١) Régis et Hesnard : *La Psychoanalyse*, p. 364.

الاعتيادى » . فإذا كان الطول مثلا موزعاً بين الناس توزيعاً يظهر منه أن أغلبهم أوساط وبعضهم عمالقة والبعض الآخر أقزام ، فهذا هو حالهم أيضاً فى توزيع الصحة النفسية أو توزيع المرض النفسى .

كذلك قيل إن فرويد قد ارتكب خطأ كبيراً فى فرضه أن الحياة النفسية للطفل تقوم على وجود الميول الجنسية المنظمة فى نفسه وبدنه ؛ مع أن البحوث البيولوچية — فيما يتصل بظهور الميول الجنسية فى هذه السن المبكرة — تقرر أن الأفراد يتباينون تبايناً كبيراً فى ذلك ، وأنها إن ظهرت فى قلة ضئيلة من الناس فإنها لا تظهر فى الكثرة الغالبة إلا فى سن متأخرة كثيراً عن ذلك . ولهذا قيل إن فرويد كان يفكر فى الطفل بعقل الكبير الذى تسيطر عليه فكرة مقيمة فانسرب إلى حد كبير جداً فى تأكيد غلبة الرغبات الجنسية على الطفل وفى جعلها قاعدة تنظم كل عملياته العقلية بل وتنظم كيان حياته كلها فيما بعد[1]. غير أن الواقع أن تفرقة فرويد بين الميول الجنسية للصغير وبين الميول الجنسية للكبير السليم لاتبرر توجيه مثل هذا النقد الى أقواله عن الأطفال .

هذا إلى أن فرويد يقع فى خطأ آخر بنسبته كل أشكال الحب أو العطف إلى الغريزة الجنسية ، لأن الحب عاطفة معقدة تعقيداً شديداً وهى لا تشمل الميول الانفعالية النزوعية الجنسية والوالدية فحسب ، بل تتصل بها كل الغرائز الأخرى تقريباً وخاصة غريزتا الزهو والخنوع . وقد أدى الربط الذى قال به فرويد بين الغريزة الجنسية وبين عاطفة الحب إلى كثير من النقاش والجدل لما ألح عليه من توسيع الميول الجنسية وأثرها فى الحياة الإنسانية وفى تعيين أصل جنسى لكثير الاضطرابات العقلية والنفسية ، وللأحلام ، وكثير من ضروب النشاط السوية التى ليست لها علاقة واضحة بالجنس .

---

(١) عن خلاصة لكتاب Cruchet : *Les Erreurs et les Dangers du Freudisme.* فى Psychological Abstracts 1927, 1508.

وإذا كان هذا هو ما يوجه من النقد إلى مذهب فرويد من الناحية المنهجية والمنطقية ، فإن أسلوبه فى العلاج لم يسلم من التجريح ، فقد قيل إن طريقته من الناحية العلاجية(١) دواء قد يؤدى إلى الأذى أكثر مما يؤدى إلى الشفاء ؛ ذلك لأن المحلل النفسى إذا بدأ علاج العوج الذى يعرض للنفس ملتمساً ما قد يوجد فيها من انحراف جنسى فحسب فإنه كثيراً ما يغرس تلك الانحرافات تبعاً لشدة قابلية المرضى للإيحاء . وهكذا قد يزيد المحلل النفسى فى أمراض النفس بدلا من علاجها . وخاصة حين يعمل على نقل الميول الجنسية وتوجيهها نحو غايات سليمة تخفف من توتر النفس أو تريحها من علتها فيثير فيها عللا جديدة لعلها لم تكن بها من قبل . لكن هذا النقد يبعد عن جادة الحق ، لأن إعداد المحلل وطريقته فى العلاج تمنع وقوعه فى ذلك الخطأ (٢)

وقيل أيضا إن التحليل فى طريقته لاستقراء ما هو مخبوء فى ثنايا اللاشعور يعتمد على منهج فضفاض مترامى الحدود : إذ هو يطلب إلى المريض أو إلى الشخص العادى أن يفسر أقواله أو أحلامه وإلى الطبيب أن يتفهم هو تلك الأقوال وأن يمعن النظر فيما قد تدل عليه دون أن يكون لتأويل كليهما فى ذلك معيار موضوعى صحيح أو مقياس مقنن للشرح والتفسير سوى ما جهد فرويد فى وضعه من تأويلات تعتمد إلى حد كبير على اعتبارات اجتماعية أو لفظية أو ثقافية إن صدقت على بيئة معينة فقد لا تصدق على أخرى مما يخرجها عن أصول القوانين الموضوعية الصحيحة ؛ أو أن تكون حصافة المحلل ونصيبه من البصيرة والذكاء هى ذلك المقياس وفى ذلك من الطلاقة ما يبعد بالتحليل النفسى عن طرائق العلم المضبوطة الصحيحة .

ولمثل هذا يمكن أن تجرح نظرية فرويد فى الرموز ، لأنه يستخرج من الرمز معنى يعتصره عصراً حتى يثبت أن فيه إشارات إلى أعضاء التناسل أو العملية الجنسية ويتطرف فى ذلك حتى أنه وضع ثبتاً لمعانى الرموز وادعى

(١) McDougall : *Abnormal Psychology*, chs. 16, 19.

(٢) انظر كتاب « مقدمة فى التحليل النفسى »

أنها عامة معقولة مع أن الفهم العام يدعو إلى الظن بأن اختلاف البيئة والثقافة والمزاج والتراث الفطرى قد تؤدى غالباً إلى اختلاف فى المعانى التى يدلى بها الرمز الواحد عند مختلف الأشخاص .

ومما قد يوجه من النقد إلى مذهب فرويد أيضاً أن النزعة الغلابة فى آرائه نزعة بطريقية ترتد إلى رغبة الرجل الفطرية فى السيطرة على الأسرة ومن ثم على المجتمع ؛ لأن فرويد من أصل يهودى واليهود أحد الشعوب السامية التى تلتزم النظام البطريقى إلى أقصى حد وتستمسك بسيادة الرجل على الأسرة أيما استمساك . لهذا كان اهتمام فرويد كبيراً بالمسائل الجنسية وما يتصل بها من صنوف العواطف ، لأن الجماعات التى يسيطر الرجال على أمورها تبدى اهتماماً كبيراً على الدوام بتنظيم العلاقات الجنسية وضبط الأنساب ؛ كما تميل إلى امتلاك المرأة والإشراف عليها ، وكأنها من خشية الوقوع فى الحرام تتصور وجوده فى كل أمر ، حتى خيل إلى فرويد وأتباعه أن العقدة الأوديبية توجد فى كل آن وفى كل مكان .

كذلك يبالغ فرويد كل المبالغة فى سلبية الإنسان ، حتى لكأنه ينكر عليه كل حرية أو قدرة على النشاط الفردى الطليق ، ولا يجعل منه سوى مسرح تنشط فيه عوامل الغريزة الفطرية توجهه فى شدة وحزم وتفرض عليه تنفيذ ما يصدر عنها من رغبات وشهوات . فقد أسرف فرويد فى تمجيد مكانة « الهو » بينا بخس ما لقوة العوامل الإرادية من قدر وما تستطيع « الأنا » أن تفعله فى تقدير السلوك وتوجيه النشاط .

ويطول بنا الحديث جداً لو أردنا أن نفصل أوجه النقد التى يمكن أن تؤخذ على فرويد ، فإن ما كتب فى تحليل النفس ، وما كتب ضد هذا المذهب قد يسع مكتبة بأكملها . وقد تراوح الإيمان بهذا المذهب والعمل على هدمه بين طرفين لا يمكن إيجاز ما يقوم عليه كل منهما ، أو عرض ما يقول به إلا فى مجلدات بأكملها .

* * *

على أن أهم من نقد فرويد وعمل على استكمال مذهبه اثنان هما أدلر « ويونج » وعمل الأول هو مدار هذا الكتاب ، أما عمل الثانى فلسوف نحاول أن نعرض لب ما قال به — على شدة استعصاء ذلك — فيما يأتى :

لم يتصل يونج بفرويد إلا بعد عدة سنين قضاها فى زيورخ متوفراً على دراسة التحليل النفسى وتطبيقه ، وأخذت الصلة تتوثق بين الاثنين فى المؤتمرات وعن طريق الرسائل . كان فرويد معجباً كل الإعجاب بيونج حتى جعل منه رئيساً لجمعية التحليل النفسى الدولية . ولكن سرعان ما اشتد الخلف بينهما لأن يونج على تقديره لآراء فرويد وإجلاله لما فيها من قيمة وثورة ، رأى فيها بعض المآخذ التى لا يرضى عنها . وبدأ هو يقيم نظريته محاولا أن يكمل بها ما أغفله فرويد ، وسمى مذهبه بالسيكولوجية التحليلية . وأدى ذلك إلى انفصال يونج عن أصحاب التحليل النفسى قبيل الحرب العالمية الأولى ، لتعسر الاتفاق بينه وبين فرويد الذى عبر عن هذه الفرقة فى لباقة الساسة بقوله « لقد استأذن كل منا فى ترك صاحبه دون أن يشعر بحاجة للقائه مرة أخرى » .

وكان مصدر الخلاف الأساسى بالطبع هو السيطرة الكاملة التى كان يقول بها فرويد حينذاك عن الميول الجنسية وحدها فى الحياة النفسية ؛ سيطرة شملت كل نواحى النشاط وتفاصيله فى النفس . على حين رأى يونج أن الجنس ، على ما له من السيطرة فى حياة المرء ، لا يتفق مع رغبة الإنسان فى الحياة الموفورة التى لا يمكن أن تقتصر عليه ولا أن تشتق منه دون غيره .

وقال بأن الليبدو مع أنه فطرى فى طبيعة الإنسان إلا أنه يمر فى دورة معينة للنمو ويرسم للحياة مجرى سيرها ، ومع أنه مشبع بالميول الجنسية وتعمل قواه فى خدمة الجنس إلا أنه أمر غير الجنس وأشمل منه بكثير . وذهب يونج إلى أن فرويد قد أخطأ فى إغراقه الحياة بأجمعها فى الجنس وفى إهماله لأمر أكبر منه خطراً ، ذلك هو الطاقة النفسية كلها التى أطلق عليها يونج

اسم « الأنا » قائلا إن فرويد قد أنسى أن الغرائز تنصهر كلها فى وحدة متجمعة، وان الحياة تنمو من كل نواحيها متكاملة . وإن محاولة فرويد إنقاذ مذهبه بتوسيع نطاق الجنس أدت به إلى التناقض حتى فقد « الأنا » قدره ولم يظهر فى مذهبه إلا متأخراً . وأقام يونج عماد سيكلوجيته على « الأنا » ولم ير فى نظرية فرويد عن الميول الجنسية فى الطفل « المنحرف انحرافاً شاملا » سوى قلب وسوء فهم لعملية النشوء ، إذ هو يجمع بهذا فى البيضة كل خصائص الدجاجة . ومع أن النمو يسير فى سلسلة من المراتب المتتابعة المتصلة التى تسبق ما يسمى فيما بعد بالجنس ، فهناك مرحلة « سابقة للجنس » تمتد حتى السنة الثالثة أو الرابعة من العمر ينصرف الليبدو خلالها إلى عمليات التغذى والنمو ؛ ومرحلة ثانية سابقة للمراهقة ينصرف نشاط الليبدو خلالها إلى مطالب التعبير عن الذات وإقرارها ؛ ولا يغلب عنصر الجنس فى الليبدو إلا فى المرحلة الثالثة عند المراهقة . ويسلم يونج مع فرويد فى أن « التثبيت » فى إحدى هذه المراحل يعوق النمو النفسى السليم ويؤدى فيما بعد إلى أشكال الأمراض العصابية ونقائص الشخصية قائلا إن الطفل العصابى هو والد الرجل العصابى .

أما عقدة أوديب التى احتلت مكانة كبيرة الأهمية فى مذهب فرويد فلم ير فيها يونج إلا تعبيراً عن رغبة الطفل فى القوة وباعثاً له إلى التماس الحماية والرعاية . فوصفُها بالحرام الذى لا يدركه سوى عقل البالغ تشويه لمعناها وخروج بها عن دورها الذى تقوم به فى عملية النشوء والنمو .

هكذا حاول يونج أن يضمن الليبدو الميول الجنسية التى دعا بها فرويد والميل إلى القوة الذى اعتمد عليه أدلر ، كما سوف نعرض له ، مقترباً بذلك من شوبنهور وقوله « بإرادة الحياة » ومن برجسون وقوله « بالدافع الحيوى » ، حتى صار الليبدو عنده موازياً لفكرة الطاقة فى عالم المادة التى يمكن أن تظهر فى شكل حرارة أو كهرباء أو حركة ، وهذه الطاقة — كما

هو معروف ــ يمكن أن تنصرف أو تتحول من شكل إلى آخر . كذلك توجد بالنفس طاقة قد تظهر على شكل جنسى ، وقد تظهر فى الفن أو العلم فلا يبقى بين الجنس وبين كل منهما إلا أن كلا منهما يصدر عن الطاقة النفسية عينها مع ما قد يبقى بها من مظاهر الشكل الجنسى العابرة التى اتخذتها من قبل .

ولعل أهم ما شاع من آراء يونج هو رأيه عن طُرُز الناس وتفرقته بين الطراز « المنطوى »[١] . والطراز « المنبسط »[٢] تبعاً لاختلاف المزاج بين كل منهما اختلافاً يؤثر على اتجاه الليبدو تأثيراً يركز نشاط الطراز الأول نحو نفسه على حين يدفع بالثانى إلى الاهتمام بما هو خارج عنه فى البيئة الاجتماعية والمادية ؛ أى أن الطاقة النفسية عند المنطوى تتجه إلى الداخل فيتميز الفرد عندئذ بميله إلى التفكير والخيال ، أما عند المنبسط فتتجه نحو غيره من الأشياء فيسيطر عليه الميل إلى الحركة والصلات الاجتماعية وما يصدر عن هذا من وجدانات مختلفة .

على أن يونج وأتباعه أدركوا وجوه النقص التى تصيب قولهم بتقسيم الناس إلى طرازين متمايزين ، ذلك أن كثرة الناس تجمع بينهما ، فلا يكون الواحد منطوياً فحسب أو منبسطاً فحسب ، بل أغلب الناس يجمع بين خصائص الطرازين ولا تقوم التفرقة إلا على الدرجة وحدها ، إذ يمكن أن ننسب الفرد إلى أحد الطرازين إذا عرفنا مثلا قدر ثقته بغيره ، وميله إلى الحديث فى المجتمعات ، ورغبته فى العزلة والهدوء ، وقدر تقبله للقيام بالعمل الرتيب المتواصل ، ومدى إغراقه فى الخيال ، وقدر تفكيره قبل الوصول إلى حل مشاكله ، وميله إلى القيام بالمخاطرات أو اقتصاره على القراءة عنها . . . وما إلى ذلك . ثم زاد يونج بعد ذلك تفصيل رأيه فقال إن الانطواء والانبساط يظهران فى مستويات أو أشكال مختلفة من السلوك

---

(١) Introvert

(٢) Extravert

هى الحس والحدس والوجدان والتفكير . وينتج من هذا أن يكون للشخصية ثمانية أنماط مختلفة ، فهناك تفكير ألوى وتفكير منبسط ، ووجدان منطو ووجدان منبسط . . . وهكذا . غير أنه يندر أن يكون هناك طراز خالص ، إذ هى كلها تظهر على الغالب ممتزجة مختلطة .

ومما ينسب إلى يونج إقامة الصلة بين تحليل النفس وبين علم النفس التجريبى بتجاربه التى وضعها فى التداعى . إذ أنه أضاف إلى التداعى الحر الذى كان يصطنعه فرويد اختباراً فى التداعى المقيد ، انتقى له مائة كلمة تقدم إلى الشخص ويطلب إليه أن يذكر أول كلمة تنبثها فى ذهنه « الكلمة المثيرة » . فإذا تأخر أو تردد فى إحدى الإجابات ، أو عجز عن الرد ، أو رد ردًّا غريباً ، دل ذلك على وجود مقاومة فى نفسه مما ينم عن العقد التى توجد بها . ولهذه الطريقة تفاصيل وشروط حاول فيها يونج أن يقرب من شروط المنهج العلمى ، هذا إلى دراسته لأشكال التداعى فى أفراد الأسرة الواحدة وفى بعض الأمراض العقلية .

كذلك قال يونج برأى خاص عن اللاشعور ، ذلك أنه يزعم أنه قد كشف عن وجود « لاشعور جمعى » فى النفس الانسانية ، تشتق منه الحياة الشعورية واللاشعورية للفرد ، ونادراً ما يظهر هذا اللاشعور الجمعى واضحاً جليًّا فى الأحلام أو الأمراض النفسية غير أن أوهام المجانين قد تبين أحياناً ما بقى به من آثار تفكير الجنس الإنسانى ونشاطه فى الأيام البدائية الأولى . لأن هذا اللاشعور الجمعى موروث يحوى الغرائز كما يحوى الأفكار الأولى ، فالغرائز هى أشكال النشاط البدائية ، كما أن الأفكار الأولى هى أشكال التفكير البدائية . ولا تصدر عن هذا اللاشعور الجمعى معان بينة واضحة بل ميول إلى التفكير على منحى معين قد تظهر فى الأحلام أو فى مخاوف الأطفال أو أوهام المعتوهين ، بل فى حياة الأسوياء من الناس حين يجبه الواحد منهم موقف لا تغيثه فى تفهمه المعارف العلمية التى ألم بها منذ قريب ،

بل تفيض عليه حينذاك من أعماق نفسه طرائق للتفكير انحدرت إليه من أسلافه الأولين ، فإذا به يفسر الأمر كما كانوا يفعلون مؤمناً بالسحر والأرواح والشياطين والقوى الغيبية . هذا إلى أن هناك من وقائع الحياة والوجود أموراً تعاقبت على أذهان الناس منذ أيامهم الأولى حتى استقرت فيها جيلا بعد جيل مثل الميلاد والنمو والانحلال والفناء ، وهم يفسرون بها أشياء و يرمزون بها إلى أشياء قد لا يكون فى تفسيرهم إياها أو رمزهم عنها علاقة قريبة أو بعيدة . إن هى إلا بقايا الحياة البدائية وتراث أسلافنا الأولين الذى انحدر إلينا خلال الأجيال والذى يجدر بنا إذا أردنا تفهمه أن نقوم بدراسة الأساطير القديمة والعادات البدائية دراسة توفر يونج على القيام بجانب كبير منها وله فيها آراء طريفة ممتعة .